قانون البلاغة

« رسالة مخطوطة »

كنا ظفرنا بين الرسائل المخطوطة في دار الكتب بدمشق برسالة في فن البيان (عدد ٢٣ من قسم المعاني والبيان) وقد كتب على ظهر الرسالة ان مؤلفها هو (فخر الدين ابو طاهر محمد بن حيدر البغدادي) ولم نظفر باسم المؤلف في كتب التراجم لنعلم في اي عصر كان . ولما تصفحنا الرسالة وجدناها ذات قيمة أدبية من حيث أسلوبها وبلاغة عبارتها . نعم ان المباحث التي كتب فيها المؤلف هي في البيان والبديع وأنواعه ولم يجودها المؤلف كما جودها من اتى بعده من المؤلفين ولا سيما تجويد ابي الهلال العسكري في كتابه الصناعتين — لكن اطلاع علماء الأدب على هذا الكتاب يهيء لهم مادة في موضوع الفن وتاريخه وتطوراته منذ اول عهده . ولذلك حرصنا على تصحيح نسختنا فوفقنا الى تصحيح كثير من أغلاطها . وقد أعيانا امر التصحيح في مواطن كثيرة . ثم أعلنا المرة بعد المرة : نسأل رجال الأدب والفضل عن هذه الرسالة ومؤلفها ، ان كان لديهم خبر عنها فلم يلب احد طلبنا ولم يرشدنا الى مؤلف الرسالة في اي عصر كان ، وراجعنا ايضاً فهارس المكاتب الكبرى في الشرق والغرب فلم نقع على ذكر لهذه الرسالة . وفي آخر الامر رأينا عجباً : رأينا العلامة شمس الدين سامي يذكر مؤلف الكتاب في كتابه التركي المسمى (قاموس الأعلام) وقد قال عن المؤلف ما ترجمته : « ابو طاهر محمد ابن حيدر كان من الشعراء وتوفي في سنة ٥١٧ هـ ومن جملة أشعاره هذه القطعة في وصف الخمرة .

(مرحباً بالتي بهــا قُتِل الهـ ـمّ وعاشت مكارم الاخلاق)
(وهي في رقة الصبابة والشو ق وفي قسوة الجفا والفراق)
(لست أدري أمن خدود الغواني عصروها ام من دم العشاق) »

هذا كل ماذكره شمس الدين سامي عنه ، ولم يتعرض لذكر مصنفاته ولا للفن الذي نتطرّس فيه ، ويظهر من شعره هذا انه متمكن من فنون الأدب العربي

وذو سليقة شعرية صحيحة . وقد عزمنا الآن على نشر الرسالة في مجلة المجمع مع العود الى العناية بتصحيح عبارتها والتعليق عليها ، ولا غرو اذا بقي فيها بعض الاغلاط فنحيل امر تصحيحها الى قراء مجلتنا الفضلاء فاذا اهتدى احدهم الى شيء من ذلك فليكتب الينا لنعلن تصحيحه بعد تمام طبع الرسالة وكذلك اذا اهتدى احد القراء الى شيء من خبر المؤلف او عرف لهذه الرسالة نسخة او نسخاً فليهدنا اليها لنقابل نسختنا عليها .

المجمع العلمي

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

« رب أنعمت فزد »

سألت أطال الله مدتك ، وأدام نعمتك ، وحرس دولتك ، عن البلاغة . والبلاغة ليست ألفاظاً فقط ، ولا معاني فحسب ، بل هي ألفاظ يعبر بها عن معان ، ولكن ليس كما اتفق ، ولا كيفما وقع ، لان ذلك لوجرى هذا المجرى ، لكان اكثر الناس بليغاً ، اذ كان اكثرهم يؤدي عن المعاني التي يولّدها بألفاظ تدل عليها ، لكنهم يخرجون عن طريق البلاغة ، ومنهاج الكتابة من وجهين ، احدهما ان تكون الألفاظ مستكرهة مُستوخمة ، غير مرصوفة ولا منتظمة . والثاني ان تكون كثيرة يغني عنها بعضها ، ويمكن ان يعبر عن المعنى الدال عليها بأقل منها .

على انه ذهب قوم الى ان لتكثر الألفاظ المرصوفة في بعض المواضع دخلاً في البلاغة ، وذلك اذا كان موضع يُحتاج فيه الى الخطابة في العامة ، ومن لا يسبق خاطره الى تصور المعنى في اول وهلة ، اما لبعده عن الذكاء والفطنة ، او لأن الموقف خاذل ، يكثر فيه اللغط والضجة ، فيحتاج الى إشباع المعنى وتوكيده وتكريره ، لمن لم يمكنه السبق الى تحصيله ، الا بالالفاظ المترادفة . وهي التي يدل الكثير منها على معنى واحد بعينه ، مثل ان يقال في وصف السيف : الحسام الباتر ، الجراز القاطع . وفي وصف الشجاع : البطل الفاتك ، النجد الباسل . وفي وصف

الجواد : الخِرْق(١) الباذل ، الجمّ النائل ، الكثير الفواضل ، الغزير النوافل ، وفي سائر الأوصاف على ذلك ٠

وهذا يقع في باب المكاتبات بالفتوح والعهود ، والصكوك والعقود ، وما جرى هذا المجرى ٠ ولهذا السبب قال بعضهم في وصف كاتب بليغ : ان اخذ شبراً كفاه ، وان تناول طوماراً(٢) أملاه ٠ يذهب بهذا القول الى ان البليغ يحتاج في موضع الى الإطالة والإسهاب ، كما يحتاج في آخر الى الاختصار والايجاز ، الا ان اكثر ما عليه الناس في البلاغة انها الاختصار ، وتقريب المعنى بالألفاظ القصار ٠ حتى انه سُئل بعض الناس عن البلاغة فقال : هي لمحة دالة ٠ وهذا مذهب العرب وعادتهم في العبارة ، فانهم يشيرون الى المعاني باوحى(٣) إشارة ، ويستحبون ان تكون الألفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة ٠

فأما ما يصلح للكتاب ، ويليق بذوي الالباب ، ان تكون ألفاظهم غير ناقصة عن المعاني ، ولا زائدة عليها ٠ كما وصف بعض الكتاب واصف فقال : كأن ألفاظه قوالب لمعانيه ٠ يريد انها مطابقة لها ، غير زائدة عليها ، ولا ناقصة عنها ٠ وهذا المذهب هو الذي يجب ان يستعمله الكتاب ، اذا لم يكن موضع يحتاج فيه الى الاسهاب ٠

فانه يحكى عن جعفر بن يحيى البرمكي وكان قريع دهره ، ووحيد عصره بلاغة في المكاتبة ، وجودة لسان في المخاطبة ؛ انه قال : اذا كان الايجاز كافياً ، كان التطويل عيّاً ، واذا كان التطويل واجباً ، كان التقصير عجزاً ٠ وقال ابن الاعرابي : قال لي المفضل : قلت لاعرابي ما البلاغة فقال : الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خطل ٠

وينبغي ان نعلم ان البلاغة لما كانت احدى الصناعات ، كان لها ما لكل صناعة من المبادئ والموضوعات والأدوات ، وانه ليس واجباً على كل متعلم لصناعة ان ينظر في مبادئها وموضوعاتها ، ولا ان يعلم أدواتها ، وهذا عام لجميع الصناعات المهنية التي يباشرها

(١) الخرق (بكسر الخاء) كالخريق بمعنى السخي او الفتى الحسن الكريم الخليقة ٠
(٢) الطومار الصحيفة المستطيلة تكتب وتطوى طيّاً اسطوانياً٠ (٣) أعجل وأسرع ٠

الصانع باعضائه العقلية التي يستعمل فيها فكره ، فان في الصناعات المهنة الصياغة ، وموضوعها الذهب والفضة . وليس يجب ان يعلم مع تعلمها ، كيف يستخرج هذان الجوهران من معدنهما ، ولا ان ينظر في شيء من امرهما ، غير إقامة الصور فيهما . وكذلك لا يعلم ايضاً كيف يعمل شيء من آلاتها مثل المبرد والمطرقة والسندان وغيرها ، بل تؤخذ أخذاً مسلماً ، على ان عملها مفوض الى الحداد . وكذلك صناعة الطب فانها تنقسم جزئين علمي وعملي ، وكلا هذين الجزئين هذه حاله ، فانه ليس يتعلم « صنع (١) » المكوى ، ولا كيف يصنع المبضع ، ولا غيرهما من الآلات ، بل يتولى ذلك أهل صناعة أخرى . ولا في الجزء العلمي ايضاً يؤخذ في مبادئه ، بل يؤخذ اخذاً مسلماً فيه ، مثل انه ليس يُبحث عن الحرارة والبرودة لِمَ كانتا فاعلتين ، والرطوبة واليبوسة لِمَ صارا منفعلتين .

كذلك من أراد ان يتعلم البلاغة لم يلزمه مع تعلمها ان يتعلم أدواتها التي لا تتم الا بها ، ولا ان يبحث عن معانيها وموضوعاتها التي يحتاج الى ضرورة فيها ، كما لا يلزم غيرها من الصناعات التي ذكرنا . فانه لو لزمنا البحث عن موضوعات البلاغة ، وتعلم أدواتها لاحتجنا الى النظر (٢) في اللغة والنحو ، وتعلم القياس والجدال مع تعلمها ، فطال ذلك وأدخلنا في الصناعة ما ليس منها فنقول الآن .

انا لما قلنا فيما مضى من المقدمة عند تعريفنا ما البلاغة ، انها ليست الفاظاً مجردة ،

---

(١) الكلمات الموضوعة بين هلالين صغيرين هي من زياداتنا لفهم المعنى .

(٢) وجد في هامش الاصل ما يأتي : اقول هذا موضع النظر لان النظر في اللغة واجب حتى يستعمل ما كان أدور « على اللسان » فيقع فصيحاً ، وكذلك النحو لانه لو أهمل امر النحو فلا يكون التركيب مستقيماً ، وكيف لا والبلاغة شرطها معرفة هذه الأحوال مع أشياء أخر » . وهامشة أخرى في المعنى ذاته : «انظر الى قوله لاحتجنا الى النظر فان فيه نظراً لانه يصرح بعد في بحث الاستعارة بقوله : ومن عيوبها ان تكون ملحونة خارجة على غير أسلوب الاعراب فكيف يكون عيباً وهو شرط عدم معرفته اللهم الا ان يريد بالاحتياج الاحتياج التام فتأمل اه .

ولا معاني قائمة في النفس مفردة ، بل أقوالاً يعبر بها عن المعاني — وجب ان يكون الاضطرار دائماً الى التوسع في اللغة التي مجراها مجرى الموضوع لصناعة البلاغة (لتعذر للبليغ[1] اللفظ ، ويحدث عند الحاجة) ما يستعمله في البيان عن المعاني ، على سبيل الناظم للجواهر المرصع بها ما يقصد الى ترصيعه ان يكون معه جميع أصنافها ، وكذلك سبيل البليغ في حاجته الى الألفاظ .

فاما المعاني فالاضطرار اليها في البلاغة أشد منه الى الألفاظ ، وذلك ان المعاني هي الأغراض المقصودة للعبارة بالألفاظ ، والألفاظ مرتبة في مراتبها[2] لان المعاني اربعة مراتب : احداها أعيان الامور ، وذوات الاشياء التي توجد تلك المعاني فيها ، ثم بعد هذه المرتبة المعقولة التي تقوّم معاني الموجودات في تصورها ، ثم الألفاظ التي تعبر عن تلك المعاني المتصورة في العقل بها ، ثم الحروف الموصوفة للخط الذي تكتب تلك الألفاظ بتأليفها .

فالبليغ الكامل هو الذي تكون الألفاظ عنده عتيدة غزيرة ، والمعاني في نفسه جمة كثيرة ، فانه مع ذلك يجيش بحره ، ويسهل الكلام والكتاب عليه .

والذي يجب على البليغ في استعمال الألفاظ ان تكون سمحة سهلة ، لها حلاوة وطلاوة ، وعليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، فلا يكون متوعراً وحشياً ، ولا ساقطاً عامياً ، ومن نعوتها تصير الاجزاء متناسبة الوضع ، متقاسمة[3] النظم ، متعادلة الوزن ، متوخى في كل جزئين منها ان تكون مقاطعها[4] على حرف واحد في التسجيع ، او حرفين متقاربي المخرجين من الفم ، فان انضاف الى ذلك ألفاظ الجزئين المتزاوجة مسجوعة كان أحسن ، مثل ماقال ابو علي البصير في بعض كلامه : حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وتمريضك تصحيحاً ، فأتى بجزئين متقاربين ، متوازيين ومسجوعين بالحرف نفسه ، وهو الحاء من غير استكراه ولا تعسف ومتزاوجي الألفاظ مسجوعيها حيث

(١) جعلنا العبارة التي تعذر ايرادها على وجه مفهوم صحيح بين هلالين كبيرين .
(٢) في الاصل المركب بدل المرتبة والمراكب بدل المراتب ولعل الصواب ماصححناه .
(٣) لعله متناسقة . (٤) خ مقطعاتها .

جعل بازاء التعريض من الجزء الاول التمريض من الجزء الثاني ، وذلك سجع بحرف الضاد و بازاء التصريح التصحيح بحرف الحاء ، فان لم تتوجه هذه المنزلة وهي أحسن المنازل فما دونها وهو السجع بالحرف نفسه فيما ضارعه وخرج قريباً من مخرجه كما كتب بعض الكتاب :

« أذا كنتَ لا تؤتى من نقص كرم ، وكنتُ لا أوتي من ضعف سبب ، فكيف أخاف منك خيبة أمل ، اوعدولاً عن اغتفار زلل ، اوفتوراً عن لم شمث واصلاح خلل » .

فوضع نقص بازاء ضعف ، وكرم بازاء سبب ، وعدول بازاء فتور ، مناسبة في وضع الالفاظ ، وموازنة بينها ، والا فقد كان يمكن ان يقال مثلاً : مكان نقص قلة ، ومكان سبب شكر ، ومكان فتور تقصير . فلم تكن الألفاظ حينئذٍ تتوازن ، وان لم يتسهل ايضاً ان يكون الجزآن متوازنين في القدر ، فليكن الجزء الأخير أطول ، فان تعدي حتى تكون الألفاظ مضرّسةً [(١)] ، والأجزاء مجتمعةً ، وأواخرها غير مسجوعة لا بحرف واحد بعينه ، ولا بحروف متضارعة ، فذلك خروج عن حد البلاغة .

ورأيت قوماً يذهبون الى كراهة [(٢)] السجع والإزدواج في الكلام ، من غير أن عرفت لهم في ذلك حجة ، فعلمت انهم ذموا مارامواه فلم يصلوا اليه ، وتعاطوه فلم يقدروا عليه ، والا فهذا القرآن وكلام الرسول وهما مسجوعان ، فاما الذي في القرآن فاكثر من ان يحاط ، اذ كان مبناه عليه . واما كلام الرسول فكقوله في عوذة سبطته : أعيذك من الهامة والسامة ، وكل عين لامة . ألا ترى انه في أصل اللغة ملمة ، فرام المقاربة فقال لامة : وقال: خير المال مُهْرة مأمورة [(٣)] ، وسكة مأبورة . وهو في اصل اللغة

---

(١) هل يريد با ُترى بقوله المضرسة ماورد في اللغة من ان المضرّس نوع من الوشي فيه أشكال أضراس . (٢) في هامش الاصل : لعل قول من قال بكراهتها محمول على انه اذا كان لا يحصلان الا بتكاف لا مطلقاً فان علماء البيان قالوا : انما يقبل اذا كان سجية . وحجة هذا انه بالتكلف يخرج عن السلاسة والفصاحة كما لا يخفى .
(٣) أمر الرجل كثرت ماشيته والاصل مؤمرة على مُفعلة ومعناها كثيرة النتاج والنسل .

مُؤْتمِرة . فعدل عنها الى مأمورة وقال : ارجعن مأزورات[1] من الواو الى الهمزة ، لانه من الوزر كما كان مأجورات بالهمزة .

ومن نعوت الألفاظ الاشتقاق والمضارعة ، فالمشتق مثل ما قال خالد بن صفوان للعبدي : هشمتك هاشم ، وأمتك أمية ، وخزمتك مخزوم ، فأنت ابن عبد دارها ، ومنتهى عارها ، تفتح لها الأبواب اذا أقبلت ، وتغلقها اذا أدبرت .

فمثل هذا في الكلام الموزون ، بازاء هذا المنثور كثير ، و يسمى المتجانس[2] . وقد شرحت حاله في كتاب الشعر .

فاما المضارعة : فكالذي جاء في الاثر إياكم والمشارة فانها تميت الغرة ، وتحيي العُرّة . وكقول محب لمن قال : خصصتك ماخصصتني ، بل انما خسستني . وكقول الآخر عوّلت لدي على مالي وآمالي .

ومن نعوت الألفاظ التبديل[3] وهو ان يُقدم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظامًا تامًا ، فيجعل ما كان مقدمًا في الاول ، متأخرًا في الثاني ، مثل قول من قال : اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك . وكقول[4] الآخر : اسودّ مني ما كنت أحب ان يبيضّ ، وابيضّ مني ما كنت أحب ان يسودّ ، واشتد مني ما كنت أحب ان يلين ، ولان مني ما كنت أحب ان يشتدّ » . وكقول الآخر : اللهم أغنني بالفقر اليك ، ولا تفقرني بالاستغناء عنك .

ومن نعوت الالفاظ الاستعارة وهي كقول القائل : مازال يفتل في الذروة والغارب[5]

(١) في الكلام نقص وهو ارجعن مأزورات غير مأجورات فعدل عن الواو الى الهمزة . (٢) يعني المجانسة كذا في هامش الأصل . (٣) و يسمى طردًا وعكسًا كذا في هامش الأصل . (٤) وهو قول معن في مسائله معاوية كذا في هامش الاصل .
(٥) ومن المجاز قولهم ما زال من فلان في الذروة والغارب اي يدور من وراء خديعته . قال الصغاني : الفتل فيه اي في المثل يفعله خاطم الصعب من الابل يختله بذلك فجعله مثلاً للمخادعة والازالة عن الرأي . والذروة أعلى الشيء والغارب ما بين سنام البعير وعنقه .

حتى لفقته عن رأيه . وكقول الآخر : النبيذ قيد الحديث [١] وكقول الآخر : فلان أملس ، ليس فيه مستقر لخير ولا شر . وكقول الآخر : لا تخدش وجه رضاك بالتوبيخ [٢] . وفي نعت القلم لعبدالله بن المعتز : يخدم الارادة ، ولا يمل الاستزادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائراً ، على ارض بياضها [٣] مظلم ، وسوادها مضيء [٤] :

ومن عيوب الألفاظ ان تكون ملحونة جارية على غير الإعراب والسبيل المبني عليه الكلام ، ثم ان تكون بشعة مستوخمة ، مضادة لما تقدم من نعوتها ، ثم ان تكون ذات تعقيد . وفي وصية بشر بن المعتمر : إياك والتوعر ، فانه يستهلك معانيك ، ويمنعك من مراميك .

ومن عيوب الألفاظ التجميع ، وهو ان يكون مقطع الجزء الاول من الجزئين المتالبين على وزن ما ، فيؤتى بالتالي له على وزنه ، ومنافراً في النظم له . مثل قول حميد بن سعيد في اول كتاب من كتبه : فوصل به ما يستعبد الحر ، وان كان قديم العبودية ، ويستغرق الشكر ، وان كان سالف فضلك لم يبق شيئاً منه » . فالمقطع على العبودية منافر للمقطع على منه .

ومن عيوبه ان يؤتى بالجزء الاول طويلاً ، فيحتاج الى إطالة التالي له ضرورة ، فيصيره اما مثله في القدر ، اوزائداً عليه ، فيضطرب حينئذ ويظهر عليه سيماء التكلف .

ومن عيوبه التكرير وهو ان تعاد الكلمات أنفسها ، او حروف الصلات والرباطات وما جرى مجراها في المدة القريبة . فأما إعادة حروف الصلات والرباطات فمثل له وعليه او منه عليه او به له . فان فصل بين الحرفين بكلمة زال قبحه مثل ان يقال أقمت عليه شهداء به .

ومن عيوبه ان يركب من الوحشي المتروك استعماله ، الثقيل في المسمع .

« للبحث صلة »

---

(١) لعل المعنى ان الحديث في مجلس النبيذ سر فكأن النبيذ قيد له عن الافشاء .
(٢) في هامش الاصل والأحسن ان تقول لا تخدش وجه رضاك باظفار التوبيخ .
(٣) في هامش الاصل اي بسواد المداد . (٤) في الهامش اي ببياض المعاني .